

النقدية التّواصلية في الفضاء العمومي الغربي المعاصر *Communicative criticism in contemporary western public space*

بوعلام بن شريف^{1*}

¹ جامعة محمد لّين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، b.bencherif@univ-setif2.dz

تاريخ النشر: 2024/04/24

تاريخ القبول: 2024/03/07

تاريخ الاستلام: 2023/10/29

ملخص: نتوخى، من خلال هذه الدراسة، تسليط الضوء على مفهوم الفضاء العمومي لدى الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، بوصفه يمثل إطارا جديدا للنقد الاجتماعي في ظل الحضارة الغربية المعاصرة، المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا، وفضاء لتجسيد العقل التواصلية، أو ما يعرف مع ذات الفيلسوف بنظرية الفعل التواصلية، التي حاول، من خلالها، تجاوز الاشكالات التي تعترض العقل الانساني بصفة عامة، بحيث تجلت بوضوح في التطور الهائل الذي حصل في العلوم التقنية، المتحكمة في العقل البشري لدرجة السيطرة والهيمنة عليه من كل الجوانب. هذا، وتقضي الضرورة المنهجية، في تصورنا، أن نتعاطى هذا الموضوع لإبراز مسألة مفادها أن الفضاء العمومي يعد أكثر الأماكن التي يمكن فيها تحقيق عملية التواصل بين الفاعلين الاجتماعيين، بحيث تتجسد فيه مختلف النماذج الفكرية والعقلية والإيديولوجية والسياسية.

كلمات مفتاحية: الفضاء العام؛ النقد الاجتماعي؛ التواصل؛ الفاعلون الاجتماعيون؛ البيئاتية.

Abstract:

Through this study, we wish to highlight the concept of public space according to the German philosopher Jürgen Habermas, because it represents a new framework of social criticism in the light of contemporary Western civilization, industrially and technologically advanced, and a space of the embodiment of the communicative mind, or what the philosopher himself calls the communicative theory of acting, through which he tried to overcome the problems that the human mind in general faced, and which were clearly evident in the tremendous development in the technical field, which control the human mind to the point of controlling and dominating it in all its aspects. This, as well as the methodological necessity, require, in our opinion, that we approach this subject to highlight the problem that the public space is the most possible place where the process of communication between social actors can be carried out, so that different intellectuals, mental, ideological and political models are embodied there.

Keywords: keywords; keywords; keywords; keywords; keywords.

*المؤلف المرسل:

1. مقدمة:

يحسن بنا، من الناحية المنهجية، لفت الانتباه إلى أن موضوع دراستنا هذه ينصب على واقع متوتر، بما أثار من آراء متباينة ومنتزعة، بين مؤيد ورافض، والذي نقصد به واقع المنظومة الرأسمالية الاحتكارية التي بلغت ذروة النزعة الاستهلاكية. هذه الأخيرة التي عمل في إطارها الرأسماليين، أصحاب الشركات الضخمة، على الهيمنة والسيطرة على الإنسان المعاصر عن طريق تطبيق عملية جهنمية تتمثل في تحيين وتدجين جل أبعاد الإنسان الحيوية: العقلية والبيولوجية في لعبة الاستهلاك، بغية جعلها أدوات بين أيدي النظام القمعي الذي قام بتوظيف جميع آلياته لتحقيق الغرض الذي مؤداه تحويل العقلانية النقدية إلى عقلانية أداتية.

هذا، لقد حاولنا تسليط الضوء على طبيعة التغيرات التي اعترت ميكانيزمات أسلوب الإنتاج البورجوازي في شكله الجديد، ونعني بذلك تحول المنظومة الرأسمالية من الاقتصاد الكلاسيكي إلى الإقتصاد الكلاسيكي الجديد، وما ترتب عن ذلك من آثار على نوعية الحياة الإنسانية في أبعادها المتفاوتة، وقد خصصنا اهتمامنا بهذا الصدد للنموذج الأوروبي لأسباب واضحة فرضتها طبيعة دراستنا المنهجية. فالمنظومة الرأسمالية، في مرحلتها النيو-كلاسيكية وخاصة في شكلها الأوروبي والأمريكي تتخللها تغيرات جسيمة أثرت في كيانها الماهوي والعرضي على حد سواء، مما جعلها تظهر على نحو مغاير تمامًا لصورتها اللبيريالية الأولى المؤسسة على فكرة محورية تفيد حرية المبادرة في مجال النشاط الإقتصادي، حيث تنحصر مهمة مؤسسات الدولة في توفير الأمن والاستقرار وليس إلا؛ في حين إتخذت المنظومة الرأسمالية الإقتصادية كفاءات مختلفة في محطاتها التاريخية المتعاقبة، بدءًا من شكلها الأفقي (Le capitalisme horizontal) إلى شكلها الأمبريالي مرورًا بصورتها الإحتكارية.

والحال تلك، يبدو إقتصاد السوق في صورته الحالية، على نحو منهج (منمط) لسلوك الإنسان المعاصر، من منطلق طغيان النزعة الإستهلاكية التي أعتبرت من دعائمه المميّزة، والسبب في ذلك راجع إلى أنّ أسلوب الإنتاج الرأسمالي، في هذه المرحلة، لا يهدف إلى سدّ حاجات الإنسان الطبيعية، إنّما يسعى إلى خلق الحاجة للإستهلاك بغية التحكم في بنية الإنسان الذهنية إلى أبعد الحدود الممكنة قصد ترويضه واستدراجه في لعبة النسق. وإن شئنا لقلنا، ضمن هذا السياق، أنّه يلعب دورًا محوريًا في تأسيس الوجود الإنساني، بحكم أنّ الجهاز الإنتاجي الرأسمالي المعاصر، في شكله الأمريكي والأوروبي الجديد، يسهم مساهمة فعّالة في خلق الحاجات التي تكتسي بعدًا بيولوجيًا يجعل منها تتمتع بعدها السحري الذي يستقطب الإنسان ويربطه ربطًا غريزيًا يجعل منه كائنًا متعلقًا بجودة السلعة المنتجة.

وفي إطار هذا التحول الهائل الذي عرفه العالم المتقدم صناعيا وتكنولوجيا، وتأثير العمليات التي أجراها الرأسماليون من أجل بلوغ مصالحهم وتحقيق منافعهم الخاصة، برزت عدة محاولات: نظريات نقدية/ فلسفية اجتماعية، منصبة في قالب فلسفي معاصر موسوم ب: الفلسفة الاجتماعية. ولا ريب، في أن أبرزها ممثلة بالماركسية التقليدية، التي حاولت منذ القرن التاسع عشر، أن تميّط اللثام عن التناقضات التي تحملها الرأسمالية في طياتها. ولقد كان ذلك مع فيلسوف النقد الاجتماعي كارل ماركس، في العديد من دراسته النقدية التي منها: مخطوطات 1844، أساسيات نقد الاقتصاد السياسي، ... إلخ

والحال تلك، بالنسبة إلى الماركسية الجديدة التي بانّت في أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية، حيث تمثل دورها المركزي في النقد الاجتماعي. هذه الأخيرة عرفت ظهورها تدريجيا، أي جيلا بعد جيل؛ الجيل الأول مثله كل من ماكس هوركهايمر وزميله ثيودور أدورنو وهيربرت ماركوس الذين وضعوا دعائم عقلانية نقدية اجتماعية جديدة في مقابل النظرية النقدية التقليدية، بغية معالجة ما عرف آنذاك بالأمراض الاجتماعية، على غرار فيتشية السلعة، التشيؤ، صناعة الثقافة، والاعتراب بشكل عام.

أما الجيل الثاني، وهو الإطار الذي بنصب عليه مضمون بحثنا هذا، يمثله الألماني يورغن هابرماس^(*) الذي يرى أنه قد تم استيعاب الفضاء العمومي وتوظيفه من الناحية السياسية، في كتابه المعنون "الفضاء العام"، من طرف أرباب العمل، ولم يبق لنظرية الإيستيطيقا أن تلعب أي دور وسط هذا الفضاء العام.

تلك هي المسألة التي أدّت بهابرماس إلى إعادة النّظر في آليات أسلوب الإنتاج الرأسمالي الاستهلاكي، نظرة نقدية، فأسس تصوّرا خاصّا حول طبيعة ديناميكية العلاقات التي تربط الإنسان الغربي المعاصر بنظام الحكم، في إطار الفضاء العمومي، بحثًا عن بؤر التوتر التي تلازم الإنسان في الحياة السياسية والإقتصادية والاجتماعية على حدّ سواء.

وعليه، إذا كان أنصار الجيل الأول للنظرية النقدية يعاتبون النظام الرأسمالي على أساس ما يحمل هذا الأخير من تناقضات مختلفة ومتفاوتة، فإنّ هابرماس كان يكيل ضرباته الحادة للنظام الرأسمالي الاحتكاري، على أساس ما يتضمّنه من أسباب موضوعية تجعل الإنسانية المعاصرة تحيد وتزغ عن طبيعتها الماهوية من جراء الهيمنة والسيطرة التي تقلب سلّم القيم الاجتماعية رأسًا على عقب، وخاصة بعدما نجح الحكم المؤسّساتي في استعمار الفضاء العمومي، هذا الأخير الذي غرق - حسب هابرماس - في مستنقع التشيؤ وصنمية البضاعة.

الحال تلك، يمكننا أن نقول، أنّ التناقضات المذكورة سالفًا، على اختلاف أشكالها، عمقها وأبعادها، شكّلت المادة التاريخية التي ألهمت هابرماس وأوعزت إليه ضرورة تأسيس نقديته التواصلية، من حيث هي وسيلة تحليلية للكشف عن الثلم التنظيمية التي تصدر عن أسلوب الإنتاج في الاقتصاد المعاصر، على أساس التناقض القائم على مسألة الحرية في إطار الفضاء العمومي ومشكلة الهيمنة المؤسسية، على العموم. وهي ذاتها الثلم والتصدّعات التي أدّت بالفيلسوف نفسه إلى الكشف عن التناقض الجوهرية الذي ينخر نسيج الحياة الإنسانية في المجتمعات المعاصرة المتقدّمة صناعيًا، وإن شهد اقتصاد السوق تغييرًا نوعيًا معتبرًا حين انتقل من الإقتصاد الكلاسيكي إلى الإقتصاد النيو-كلاسيكي.

وعليه، نجد أنه يقترح، في العديد من دراساته النظرية، العلمية، رؤية جديدة تتشكل من لعبة الكلمات الآتية: الفضاء العمومي، التواصل، التذات، البيئاتية، الفعل التواصلية، الفاعلون الاجتماعيون...، والتي يرى أنها في درجة عالية من التأشكّل. ويؤكد في مختلف مؤلفاته أن الفضاء العمومي هو المكان الذي يمثل اطار عام لتجسيد فعالية وحيوية العقل النقدي الجديد، وهو ما اتخذ عنده تسمية العقل التواصلية أو النظرية التواصلية، أو النقدية التواصلية في الفضاء العمومي الغربي المعاصر، كما هي واردة أعلاه. ونحن، في هذا الطرح التحليلي لمسألة الفضاء العمومي عند يورغن هابرماس، نسعى، للوقوف، بشكل مخصوص، على مفهوم الفضاء العمومي ووظيفته ودلالاته، بوصفه يعد اطار تتحقق فيه قوة العقل النقدي الإنساني.

ومن خلال هذا المنطلق، وعلى أساسه، إلى أي مدى تتحقق عملية التواصل والتداوت، في اطار الفضاء العمومي الغربي المعاصر من منظور يورغن هابرماس، وما الغرض من تأسيس هذه العقلانية النقدية التواصلية؟، بتعبير آخر، هل بقي يورغن هابرماس سجين النقد الراديكالي المتشائم لدى ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو وهربرت ماركوز، أم أنه تجاوز ذلك إلى أفق جديد يرى من خلاله تحقيق مسألة تحرر الإنسان والفضاء العام؟

لاريب، في أن طبيعة الموضوع، في مجال البحث الفلسفي هو الذي يحدد طبيعة المنهج أو الطريق (الشاكلة) الذي ينبغي الحذو حذوه لبلوغ القصد أو الهدف من الدراسة الفلسفية. وعليه، فقد ارتأينا، في هذا السياق، توظيف المنهج التحليلي نظرا لأدواته التي تتناسب موضوع ورقتنا البحثية. هذه الأخيرة تتمثل في عملية الانتقال، أثناء تحليلنا للأفكار، من الكل إلى الجزء، أي مما هو غامض إلى تحقيق التجلي

وحضور الوضوح العلمي، ولا شك في أن هذه الطريقة ستحقق لنا في الأخير ثنائية الهدف والأهمية من البحث الفلسفي.

أما بخصوص الأهداف من ورقتنا البحثية هذه، فإنني سأصيغها في هدفين أساسيين كما يلي نصه:
- أولاً: تفكيك لعبة الكلمات التي سبق الإشارة إليها من قبل، والمتمثل بشكل مختصر في مفهوم الفضاء العمومي الغربي المعاصر، والنقدية التواصلية عند هابرماس، وتقريب الفهم من خلال ذلك للطلبة الليسانس والماستر كي تتحقق القصد في الأخير. وهذا ما يحضر أمامنا كإجابة على مفارقة البحث والإجابة على الإشكالية هو ما نقصد به الهدف من البحث العلمي أو الفلسفي.

ثانياً: فتح السياق للطلبة كي يخوضوا في مثل هذه المواضيع المتعلقة بدرجة عالية من التأشكك بالميدان الاجتماعي والفضاء العمومي بغية معالجة المشاكل التي يعيشونها في مجتمعاتهم العربية من أجل إماطة اللثام عن التناقضات والمشاكل اليومية.

ولتحقيق هذا الغرض، ارتأينا معالجة مجموعة من القضايا الفلسفية، بما فيها:

جينياولوجيا الفضاء العمومي، ومفارقة انحراف وظيفية النقدية التواصلية واستعمار الفضاء العمومي من منظور يورغن هابرماس، وبعد ذلك، تقتضي الضرورة المنهجية، في تصورنا التطرق لمسألة الدور المركزي لوظيفة النقدية التواصلية في الفضاء العمومي الغربي المعاصر، ثم ننتقل إلى الخاتمة التي نجيب فيها على إشكالية البحث، وفي الأخير، نحاول أن نبين موقف أكسل هونيث المناهض للنقدية التواصلية عند هابرماس.

2. أصل نشأة الفضاء العمومي عند يورجين هابرماس:

يلاحظ هابرماس أن مفهوم المجال العمومي يحتل موقعا مركزيا في الفكر السياسي المعاصر باعتباره مجالا للمناقشة واطارا لمختلف القدرات الفكرية على البرهنة والإقناع. ففي داخله تتكون الإرادة السياسية التي تفرض استقلالا معيناً في تشكيل الرأي. فهابرماس في دراسته عن المجال العمومي يعلن منذ البداية أنه سيقصر على تحليل نموذج المجال العمومي البورجوازي وإن معالجة مفهوم الرأي العام يفترض ملامسة القضايا التي تهم مختلف أصعدة ما ينعى ب"السياسة".¹

وفي هذا السياق، "يظهر المجال العمومي أحيانا كأنه ذلك المجال الذي يعبر فيه الرأي العام عن معارضته، مباشرة، للسلطة. [وأحيانا أخرى يظهر في صورة الدولة التي تتمتع بمؤسساتها العمومية، مما يعني أن الناس لهم الحق في الإتصال بها والدخول إليها، وأنها مؤسسات وجدت لخدمة الناس وبالتالي فالدولة هي سلطة العموم، أي أنها تهتم بالمصلحة العامة لكل المواطنين."² ويتشكل الفضاء

العمومي - حسب هابرماس - من مستويات مختلفة وفق كثافة التواصل وتعقيد التنظيم ومدى اتساع النوعية، من فضاء عام عرضي؛ كالمقاهي والشوارع، إلى فضاء عام مجرد شكلته وسائل الإعلام، ومكون من القراء، والسامعين، والمتفرجين، إلى فضاء عام منظم بحضور المشاركين كالعروض المسرحية، مجالس أولياء التلاميذ، حفلات الموسيقى، الاجتماعات الحزبية، والمحاضرات، والندوات، والملتقيات. فهو إذن ظاهرة اجتماعية.³

ويرى هابرماس في كتابه المعنون: "الفضاء العمومي: أركيولوجيا الدعاية باعتبارها مكون أساسي للمجتمع البورجوازي أن الفضل يرجع في "استقلالية وتقدم الفضاء العمومي البورجوازي، إلى ازدهار الصحافة. مع رأي عام يتشكل خاصة من سكان المدن والبورجوازيين، الذين كيفوا عاداتهم القرائية مع الجديد من المنشورات. وخاصة مع دخول التحليل النقدي في الصحافة اليومية، تشكلت في قلب الفضاء الخاص شبكة مكثفة من التواصل العمومي. هكذا ستتشكل أشكال جديدة للعلاقات الاجتماعية، مؤسسة على المناقشة واستعمال العقل، نقاش في الصالونات، حيث يعلق الناس على الأخبار الواردة من الجرائد، وكل فرد يعطي رأيه وتبريره."⁴

ولا يفوتنا أن نشير في هذا السياق، إلى خاصية أساسية يتميز بها الفضاء العمومي، وهي أن تفكر باستقلالية، يعني أن تفكر بصوت عال. فتبادل الآراء والأفكار ينتج عنه فضاء تتقاطع فيه الآراء حيث الذوات العاقلة في تواصل دائم. إن الاستعمال العمومي للعقل يجعل مهمة المواطنة مزدوجة. فهو من جهة فاعل، ومن جهة أخرى متفرج. فالعالم أصبح الذات العاقلة التي تستعمل عقلها. فكل فرد باعتباره مواطنا يتموقع بين فاعل في الفضاء العمومي، وفي الوقت نفسه قادر على التعليق وإبداء الرأي. فالاستعمال الخاص للعقل يتجلى في المهام المدنية، وبعيد كل البعد عن التأملات العمومية. فالفرق واضح بين دائرة الآراء ودائرة الأفعال. إن التنوير تتأسس بالالتزام في الاستعمال العمومي للعقل من تعدد الآراء وتبادلها في الفضاء العمومي.⁵

إلا أن المشكل - حسب هابرماس - يحضر في وجود "قوى تتصارع وتتفاعل داخل المجال العمومي، بعضها خاضع لإغراء الاستخدام وآليات السيطرة، وبعضها الآخر يتحرك ضمن مسافة نقدية إزاء إرادات الدمج. لذلك يلاحظ هابرماس أن هناك ميدانان للتواصل يصعب اقضاء الطابع السياسي عنهما، وهما ميدانان في حالة صراع: هناك الآراء الراضية لما هو متعارف عليه، الشخصية، غير العمومية، وفي المقابل توجد الآراء المعترف بها من طرف المؤسسات، الأولى تسعى إلى التحرر والثانية تعمل على الدمج من خلال الاستخدام La manipulation، وأساليب الإغراء.⁶

ولاربية، في أن كلا الميدانان منحرفين عن الفضاء العمومي، وقد تم استعمارهما والسيطرة عليهما في اطار المجال التجاري - الاقتصادي الذي أضى ميزة من مميزات هذا الفضاء العام من منظور هابرماس. وهذا ما نستشفه من خلال كلام ذات الفيلسوف الذي يلي:

"الفضاء العمومي، من الناحية الاقتصادية، هو مجال لتبادل السلع وتوزيع البضائع يلفية عادلة، إنه فضاء المجتمع المدني الذي يحتوي عمليات الانتاج والاستعمال والتبادل".⁷

لكن، المفارقة التي سنثيرها، في هذا السياق، هل باستطاعة أفراد المجتمع المدني، في اطار هذا الفضاء العام، حل معظم التناقضات التجارية والاقتصادية؟ أو بتعبير أدق، هل هل يمكن حل مشكلات التوزيع وصنمية البضاعة، التشيؤ...إلخ، في اطار العالم المعاصر، من أجل تحرير الإنسان، أم أن هذا الأخير يعيش شكل جديد من أشكال الإغتراب؟

3. انحراف الممارسة التواصلية واستعمار العالم المعيش:

تجدد بنا الإشارة، أولاً قبل كل شيء، إلى طبيعة العالم الغربي المتقدم صناعياً، الذي ينتج من أجل تحقيق غايته المتمثلة في استعمار الإنسان المعاصر، من خلال تطبيق العديد من آليات السيطرة، التي من بينها استعمار العالم المعيش. وذلك قصد تسليط الضوء على مفهوم الفضاء العام والدور المركزي الذي يؤديه.

في الحقيقة، إن الواقع التكنولوجي ومجموعة الأدوات المستعملة L'ensemble des instrumentalités يزرعان على النحو الذي يصبح عالماً موضوعاً يحتوي الأفراد، ويعاش كما لو كان العالم الحقيقي الأوحده وبينه الحياة الوحيدة وأفق الآمال الوحيدة، والقيمة القصوى. وهو بالنسبة إلى العلماء والتقنيين، عالم عقلانية منطقية ورياضية وحسابات اجرائية، وفي جوهره عالم القوة. وبالنسبة إلى عالم الناس، فهو عالم العمل والإنتاج واللذة والاستهلاك، وخصوصاً عالم المتعة.⁸

ويرى هابرماس أن العالم المعاصر هو عالم الوفرة، وهو متأثر بزيميله هربرت ماركوز، لكن التقنية التي ينتجها هي ف الحقيقة موجهة من طرف نظام الحكم كأداة للهيمنة والسيطرة. وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى "أن التقنية موجودة بصورة موضوعية وواقعية تماماً، ولكن ليس كما يعتقد البعض اليوم، كتراصف خارجي لأشياء تقنية. إن وجودها كمجموعة أدوات مستعملة في منازل كل إنسان وفي خدمة

جميع الناس، أخذ في التلاشي، بينما ينمو كحساب إجرائي كلي، يحدد سلوك الأفراد، والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية وكشبكة واسعة تكون سلطة مطلقة يتقاسمها من يمسك بدفة القيادة.⁹ إن هذا المظهر العقلاني للاعقلانية، وهو التشيؤ بمفهوم الجيل الأول للنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، يسميه هابرماس باستعمار العالم المعيش. كيف ذلك؟

يرى هابرماس أن تكريس ظاهرة استعمار العالم المعيش أو التشيؤ قد تم بواسطة تغلغل ميكانيزمات التنظيم النسقي المختصة باعادة الانتاج المادي، أي الأنساق الفرعية للدولة والاقتصاد وتسربها إلى مجالات إعادة الإنتاج الرمزي أي الثقافة، الاندماج الاجتماعي، والتنشئة. وهي مجالات تسير وفق الفعل الموجه نحو الفهم المتبادل. وينجم عن هذا التغلغل تشوه مرضي يصيب بنيات تواصل العالم المعيش، ذلك لأن الوسائط الناظمة للمال والسلطة تدفع الفاعلين إلى تبني موقف موضوعاتي إزاء ذواتهم والآخرين والأشياء، وكبت أشكال الفعل الموجه نحو ادعاءات الصلاحية، ما يجعل الممارسة التواصلية اليومية خاضعة للتشيؤ نظرا إلى كون المعقولية الأداة هي نموذج المعقولية الوحيدة السائد. هذا الطريق يتم بواسطته استيعاب العالم المعيش والاستلاء عليه بدل التواصل.¹⁰

ولا ريبه، في أن هابرماس يؤكد ذلك في دراسة مستفيضة أجراها في كتابه الموسوم بـ: "الميدان العام" حيث يعتبر دراسة للدعاية والإعلام اللذان يرى فيهما وسيلتان فعالتين مباشرتين "من وسائل هيمنة الدولة ومؤسساتها البيروقراطية، بحيث تسهم في تكوين رأي عام يوازي أهدافها على الدوام، ولا تسمح لهذا الرأي بأن يتعارض مع برنامجها ومشروعها العام في السيطرة، وذلك عبر خلق محفزات مرنة لأجهزة هيمنتها على الوعي الجماعي، وتنشيط هذه الأجهزة بشكل يوازي الحركية التاريخية لتطور الوعي الجماعي والمؤثرات التي تحيط بهذا الوعي وتمتلك القدرة على تحقيق خروج جزئي أو كلي من الاستلاب العام.¹¹

فالدعاية التي شكلت في الماضي نظام نشر الأفكار، بغرض معرفة تحررية أصبحت مع مرور الوقت إعلان ذي ميزة تجارية. الدعاية عملت سابقا على فك لغز الهيمنة السياسية بفضل الاستعمال العمومي للعقل المتسائل،¹² في طبيعة المنظومة المؤسسية الحاكمة المستتبة، التي أصبحت - كما يرى هابرماس - تؤدي وظيفة "صناعة التحيين الاجتماعي من أجل بيع القيم التجارية".¹³

من هنا راح هابرماس يصف وسائل الإعلام الجديدة مثل لراديو والتلفزة بشجاعة متماثلة. حيث قام بنقدهما بالاعتماد على نموذج الفضاء العمومي الأدبي. هذا الأخير نشر القراءة في الوسط الأسري في

حين أن حتى الذهاب إلى السينما والإصغاء جماعة إلى الراديو أو مشاهدة التلفزة جماعة لا شيء لم تدم العلاقات الاجتماعية المميزة للفضاء الخاص المترابط بالفضاء العمومي.¹⁴

إن هذا المنطق الذي يقوم على أساسه العالم المعاصر، يختلف تماما مع طبيعة العالم المعيش الذي هو - حسب هابرماس - السياق الذي تتم فيه عملية التفاهم. بحكم أن المجتمع هو "كعالم معيش وكنسق ولقد استعار مفهوم العالم المعيش من هوسرل الذي اكتفى من ورائه بتأكيد أهمية عالم الإنسان ونشاطاته اليومية، اهتماماته، آلامه، علاقاته مع الآخرين وتجاربه المعاشة وكل سياقاته الاجتماعية والثقافية. ولم ينتبه كما بين هابرماس إلى أن العالم المعيش المشكل على أرضية الممارسة اليومية للتواصل يتضمن أمثلة Idéalisation، تظهر في الكفاءة التواصلية التي يمتلكها المتكلم.¹⁵

وتتجلى ملامح هذا الاختلاف في العالم المعيش كما ينظر إليه هابرماس وكما تعمل المنظومة السياسية على استعمارها في كون أنه قد تم "إنتاج وسائط كالمال والسلطة البيروقراطية التي تؤثر في أغلب الأحيان بشكل سلبي في عملية التواصل بين الذوات داخل المجتمع، مما يؤدي غي آخر المطاف إلى ما يسميه استعمار عالم المعيش وعالم القيم."¹⁶

من هنا عرفت الممارسة التواصلية انحرافها عن هدفها الرئيسي وفقدانها معناها التحرري فباتت مدججة في لعبة المنظومة الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة. إن انحراف الممارسة التواصلية العادية وفقدان المعنى والاضطراب الذي يطبع السلوك الانساني الحديث تم بواسطة السيطرة على العالم المعيش من طرف التقنية وإغراقه في مستنقع العقلانية الأداة والوظيفية.

وإذا كانت وظيفة العقلانية تسمح بنمو الإنتاج المادي في الميدان الاقتصادي وتنظيم المجتمع في إطار الدولة، فإن المفارقة التي حدثت، أدت بالأنساق والمنظومات الشبكية التي كانت موجهة لدعم ومساندة الفعل التواصلية في لحم النسيج الاجتماعي إلى استعمار العالم المعيشة فتفتت بناه وافراغه من محتواه.¹⁷

هذا، وإن مع تطور الدولة والمؤسسة الاقتصادية الرأسمالية والطبقة المهيمنة سياسيا واعلاميا، أي تمتلك الإعلام وتسيّره حسب ما تقتضيه مصالحها وليس مصالح الجميع. وفي ظل هذه التحولات فقد الفضاء العام صلاحيته وبات خاضعا للتطويع السياسي والاقتصادي، وبذلك ابتعد تماما عن النموذج الأصيل للفضاء العام البورجوازي مما يستدعي حسب هابرماس إعادة إحيائه من جديد.¹⁸

وفي محاولته لإعادة بناء المجال العام، يعول هابرماس على إعادة تفعيل السيادة الشعبية للمواطنين عبر مناقشات حرة ديمقراطية داخل هذا المجال، ومثل هذه الأخيرة تؤكد استمرارية الفضاء

العام في المجتمع، "ويشكل علاقات اجتماعية وسياسية توسع مجال مناقشة القضايا العامة داخل الفضاء العام.¹⁹، إن مشاركة جميع المواطنين، في هذه المناقشات، وبطريقة متساوية، أمر مركزي بالنسبة لمفهوم المجال العام لدى هابرماس، لأنه ليس بمكان للتعبير عن الرأي فقط، وإنما هو مرآة تسمح للأفراد والمجموعات المشاركة من التفاهم، وفحص ونقد واقعهم كما هو وكما يراد له أن يكون، وعلى ذلك فهو يعتزم إعادة تشكيل نظرية الفعل التواصلي انطلاقاً من قواعد معيارية ولغوية، تحصل في المجال العام للدخول إلى الحيز السياسي، وانجاز مشروعه، في تأسيس السياسة على بُعد عقلائي تواصلي.²⁰

4. الدور المركزي لوظيفة العقلانية التواصلية في الفضاء العمومي عند هابرماس:

1.1.4. حول معنى الفعل التواصلي:

يقصد هابرماس بالفعل التواصلي التفاعل المصاغ بواسطة الرموز اللغوية، بحيث يضمن الوصول إلى حقائق متفاهم عليها بين الأطراف المتحاور، علماً أن الحوار في سياقه الاجتماعي أداة للقضاء أو تجنب الحالات الباثولوجية (المرضية) التي تصيب المجتمع في لحظة تاريخية معينة.²¹

بمعنى التفاعل الذي يحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية أو الانسانية في حقبة تاريخية ما بواسطة الرموز والتي تخضع للمعايير التي تحدد تطلعات أفراد المجتمع وتصوغ فهم هؤلاء لدواتهم، ويتحدد ذلك في المجالات الأخلاقية والجمالية والسياسية، وهذا قصد تحقيق التفاهم والاتفاق، ولهذا يتم استبعاد الاكراه والعنف والسيطرة، لأن الفعل التواصلي عنده يرتكز على مقارنة تهدف إلى تحقيق اتفاق مبني على قناعات متبادلة بين أفراد المجتمع، فيتحقق اجماع عقلائي يمكن أن يغير مسار العقلانية الأداتية، ولهذا يجب التفكير في العقلانية التواصلية²²، التي لا بد أن تقف وتتأسس على قواعد أخلاقية وتؤدي وظيفة مناقشة القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية في اطار الفضاء العام الذي يجمع أفراد المجتمع المعاصر. ونفس الشأن متعلق بوظيفة الفضاء العام، الذي يعد بالدرجة الأولى "مجال للنقاش، يمارس فيه الأفراد حرية التعبير والتواصل بغية التعرف على أوضاع المجتمع."²³ بمعنى، أنه المجال الذي يمارس فيه النقاش العام المتعلق بدرجة عالية من التأشكك بالقضايا السياسية والاجتماعية التي تنبثق من رحم المجتمع المدني.

2.4. وظيفة العقل التواصلي عند هابرماس:

تسعى العقلانية التواصلية إلى ضبط علاقة الفرد مع الآخرين مع اخضاع العلاقات الاقتصادية والسياسية القائمة داخل المجتمع لأخلاقيات المناقشة. فالحوار القائم على المساواة ومن دون ضغط أو اكراه، يعد البداية الأولى لحمل المجتمع بكافة طبقاته إلى جمعة أو جتمعة (التنشئة الاجتماعية) تحقق

عقدا اجتماعيا يقبله ويحتكم إليه الجميع. ومن خلال هذا المنطلق، ينقض هابرماس العقلانية الأداتية الخاصة بالتقنية والأنساق التي لا تعرف إلى منطق الحسابية والوظيفية، ويقدم لها بدبل العقلانية التواصلية التي تكفل شروط التفاعل السليم والحوار المتبادل، بغية تأهيل الإنسان لحماية عالمه من هدير التقنية على نحو يعيد التوازن بين عالمه المعيش وعالم الأنساق.²⁴

وفي الحقيقة، يعد هومبولدت استثناء مميّزا لدى هابرماس لأنه استطاع تطوير مقاربة تداولية صورية تهتم بالبنى العامة للخطاب، وبأشكال الحوار وتمايز الأدوار والمواقف والعلاقات البينشخصية للمشاركين. وكذلك الفروق بين المحادثات التي تحيل إلى أشياء في العالم الموضوعي، أو مطالب أو توقعات معيارية وتوجهات أكسيولوجية للحياة الاجتماعية أو الثقافية.

وباختصار فقد جعل هومبولدت اللغة تُطور على المستوى الثقافي فهما مسبقا للعالم في كليته، تتشارك فيه الجماعة اللغوية بصفة بينداتية، أما في مستوى التطبيقات الاجتماعية فتشكل اللغة طابع حياة الأمة وشكلها. ويعتبر هابرماس تصور العالم المعيش المشكل بواسطة اللغة كفضاء خلفي للممارسة اليومية للتواصل إنجازا مهما قام به هومبولدت لأنه استطاع بواسطته أن يربط النظرية الاجتماعية بنظرية اللغة.²⁵

والحق أن العقلانية التواصلية تقوم على ما يسميه هابرماس بإيتيقا المناقشة. بمعنى أن في إطار التفاعل الذي يجمع بين المتحاورين، داخل الفضاء العمومي، "ليس من حق المتحاور أن يفرض مولقفه على الآخرين، إذ يجب عرض المواقف والأفكار، والحوار هو الذي يحدد مدى صحتها ومصداقيتها وصلاحيتها وبمدى تقبلها من قبل الذات المتحاوره داخل الفضاء العمومي، وفي سياق تباين الآراء واختلافها والتنوع والتسامح الذي قوامه التداوت المشترك القائم على مجال لغوي تداولي تراعى فيه قواعد المعقولية والصدق والدقة وتستند على المناقشة والحجاجية، بعيدا عن القهر والتسلط."²⁶

وهذا المعنى، فإن تحقيق التفاهم عند هابرماس أمر يقوم على ربط الفعل التواصلية باللغة كأداة لتنظيم الأفعال الاجتماعية وبالتالي فإن اللغة عنده ليست مجرد وسيلة لنقل الأفكار والمعلومات فقط وإنما هي رابط من الروابط الاجتماعية الأساسية الذي يؤدي إلى التداوت المشترك والتفاهم المتبادل الذي يخلى فيه الفرد من ذاتيته الطبيعية وينخرط في الإطار الاجتماعي القائم على التواصل والتداوت والمناقشة الحرة، واللغة كما قلنا هي الإطار الذي يحدث فيه هذا التواصل.²⁷

إن الغرض من توظيف النظرية التواصلية في إطار الفضاء العمومي - حسب هابرماس - هو الكشف عن أهمية الحقل الاجتماعي، فعن طريق النشاط أو الفعل التواصلية الذي يتضمن القدرة على

التفاهم التداوتي بواسطة الفعل اللغوي، يتحقق التفاهم المتبادل والاتفاق حول الانشغالات والتطلعات بين الذوات والتي تتقاسمها الأطراف المشاركة في الحوار والنقاش الحر من خلال الاستعمال العمومي للعقل. لذلك كان من الطبيعي أن يتضمن الفعل التواصلي بعد التحرر الإنساني، وذلك لأن إمكانية تحقيق الحوار أو النقاش العقلاني العمومي كفيل بتجسيد عملية التحرر الفعلية، لذلك يكتسي مبدأ التفاهم عن طريق التواصل أهمية قصوى عنده، وهذا بغرض تأسيس وجهة نظر معيارية داخل حقل الممارسة الاجتماعية الفعلية.

ولهذا السبب كان يرى أن أفعال التواصل والتفاهم التداوتية هي بمثابة أطر عملية كفيلة بتحقيق المثل التحررية، وأن العقل لا يتحقق ضمن سياق حركة التاريخ – كما اعتقد هيغل- وإنما ضمن أشكال التفاهم المتبادل بواسطة اللغة. كما أن الأمر لم يعد متعلقا بصراع قائم بين الطبقات الاجتماعية المختلفة التي تهدف إلى تحقيق التحرر من خلال الممارسة (البراكسيس) بل بالتزاعات القائمة داخل نسيج العلاقات الاجتماعية التواصلية.²⁸

هكذا ينقل هابرماس مفهوم التاريخ عند هيغل، ومفهوم الممارسة والعمل أو الفعل الثوري الذي يرى بأنه يقترب من مستوى العنف في الواقع، إلى شكل جديد من المطالبة بالحقوق والمعارضة في إطار الفضاء العمومي. إن الطريقة الهابرماسية تتمثل في ممارسة فعل تواصلي بالتركيز على العقل التواصلي الذي يتشكل من اللغة السليمة وأخلاقيات النقاش والحوار التي ينبغي الحدو حدوها، في إطار الفضاء العمومي، بغية تحقيق تحرر الذوات بالتذات والتواصل مستمر.

من هنا، يؤكد هابرماس أن التواصل هو الوسيلة الوحيدة التي بإمكانها أن تعيد لم الشمل بين ذوات تشترك في عملية التذات، في حين أن مجتمع العقلانية التكنولوجية نجح في عمله على عزل هذه الذوات. كما يميظ اللثام عن تلك الحقيقة التي مؤداها أن هذا الفعل التواصلي يتمتع بقوة استبدال طبيعة علاقات الإنتاج المؤسسة على السيطرة بمقولة العدالة الاجتماعية.

5. المناقشة:

1.5. موقف أكسل هونيث المناهض للنقدية التواصلية الهابرماسية:

في الحقيقة، يعتبر هونيث فيلسوف ألماني عمل على ضرورة تأسيس فلسفة تقوم على براديجم الاعتراف، وهي الفلسفة الاجتماعية التي ستعالج كما صرح في العديد من نصوصه الفلسفة الأمراض الاجتماعية التي يعاني منها الإنسان الغربي لا سيما التشيؤ و الجور الاجتماعي الذي يبرر من خلاله موقفه المعارض للنظرية التواصلية عند يورغن هابرماس.

من خلال هذا المنطلق، وعلى أساسه، عمل في كتابه المعنون: "الصراع من أجل الإعراف" بإعادة النظر في طبيعة الحياة الاجتماعية، إنطلاقاً من أشكال الإعراف التداوتي التي بإمكانها أن تربط نسيج العلاقات الاجتماعية. "ومع أن هونيث قد أشاد بما يسمى بالمنعطف التواصلي لهابرماس الذي أعاد تحيين النظرية النقدية من جديد؛ غير أنه بقي متحفظاً على اختزال هابرماس للحياة الاجتماعية إلى البعد اللغوي والتمركز حول اللغة قد يحجب عنها حقيقة التفاعلات المجتمعية ويؤدي هذا إلى عدم القدرة على إدراك التجارب الاجتماعية والأخلاقية المرتبطة بأشكال الظلم والاحتقار وعدم الاعتراف بالأفراد أو الجماعات. لهذا حاول هونيث إعادة إدماج بنيوي لأشكال الصراعات الاجتماعية وأنماط التجربة الأخلاقية المعاشة ضمن نموذج معياري للاعتراف المتبادل الذي استلهمه من هيغل [وماركس، بخصوص مسألة التضامن] وعمقه من خلال أعمال هيربرت ميد.²⁹

من هنا، نصل إلى القول أن هابرماس - حسب أكسل هونيث - أراد أن يفهم الظروف الاجتماعية أو التجربة المعيشية بالعودة إلى التجربة التواصلية التداولياً، وذلك وفق إيتيقا التواصل التي تفرض علينا ضرورة احترام قواعد الحوار والنقاش، في حين أن التجربة التي يعيشها الإنسان الغربي المعاصر هي تجربة الظلم والجور الاجتماعي. مما أدى به إلى أن يعيد النظر في النظري التواصلية الهابرماسية.

6. خاتمة:

من كل ما سبق ذكره نستنتج ما يلي نصه:

- أن الفضاء العمومي، من منظور يوغن هابرماس، يختلف في الحقب الزمنية داخل المجتمع الواحد، فما بالننا بالفضاء العمومي في مختلف المجتمعات. فهابرماس الذي أحدث دراسة مهمة في هذا المجال، كان هدفه يتمثل في تبيان أن الفضاء العمومي، عرف تطوراً عبر التاريخ، وخاصة الحقبة الحديثة حيث أنتج الحكم المؤسساتي أدوات تكنولوجية هائلة، وطور من وظيفة الدعاية والإعلام والإعلان. إلا وأن الغرض من دراسته هذه يتلخص في إظهار الوجه البورجوازي القبيح الذي يستتر خلف هذا التطور، والذي يتمثل - حسب هابرماس - في توظيف هذا التطور بغية استعمار العالم المعيش.

- أن المسألة الرئيسية التي درسها هابرماس دراسة مستفيضة في العديد من مؤلفاته، لا سيما "الفضاء العام" هي مفارقة استعمار الحكم المؤسساتي للفضاء العمومي البورجوازي، بتوظيفه للإعلام ومختلف الآليات التي أحكمت بها قبضتها على الإنسان المعاصر من جميع الجوانب، العقلية اللغوية والنفسية والبيولوجية.

- أن نظرية الفعل التواصلي، في مقابل التشيؤ والعقلانية الأداة هي الركيزة الأساسية التي بفضلها يتمكن الإنسان المعاصر أن يسترجع معانيه وجوهره الذي غرق في مستنقع النزعة الاستهلاكية. والتي بفضلها سيتحرر من أزمة العقلانية التكنولوجية. إن من أهم أبعاد النقدية التواصلية هو تحقيق تحرر الإنسان المعاصر بتحرير الفضاء العمومي من قبضة الاستعمار الرأسمالي الاحتكاري.

- إن هابرماس، في النظرية التواصلية، يتجاوز نقده الراديكالي العنيف إزاء العقل الغربي الذي تسبب في الإستلاب والهيمنة والسيطرة. ليفتح منهج التواصل بين سكان المعمورة قصد تحقيق الإنفاق والتضامن والتفاهم في نمط المعيشة اللائق والذي سيحقق التعايش السلمي، وهو في هذا السياق جد متأثر بمشروع إيمانويل كانط في السلام الدائم والحب والوثام.

- وفي الأخير، يمكن القول أن النظرية التواصلية تكتسي بعدا انسانيا يسكن أعماق الضمير والوعي والأخلاق، وهذا البعد هو في درجة عالية من التأشكك بإيتيقا المناقشة التي تتشكل هي بدورها من اللغة المنطقية السليمة، لكنها ليست لغة الفلاسفة المثاليين، بل فضلا عنها هي في جوهرها لغة تتأقلم مع السياقات التاريخية التي يعيشها الإنسان: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. إنها لغة التواصل التي ستقضي - حسب هابرماس - على الأمراض الباثولوجية المعاصرة لا سيما مرض التشيؤ واستعمار الفضاء العمومي.

7. قائمة المراجع:

- 1- محمد نور الدين أفاية، *الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة (نموذج هابرماس)*، إفريقيا الشرق، بيروت - المغرب، ط2، 1998، ص: 95.
- 2- المرجع نفسه، ص: 96.
- 3- جميلة حنيفي، "مدرسة فرانكفورت والتنوير: من السلب إلى الإيجاب"، كتاب جماعي بعنوان: *سؤال الحداثة والتنوير بين الفكر الغربي والفكر العربي*، اشراف وتقديم خديجة زيتلي، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013، ص: 96.
- 4- نور الدين علوش، *المدرسة الألمانية النقدية من الجيل الأول إلى الجيل الثالث: فيودور أدورنو، يورغن هابرماس، أكسل هونيث*، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2013، ص: 65.
- 5- المرجع نفسه، ص: 70.
- 6- محمد نور الدين أفاية، مرجع سبق ذكره، ص: 100.
- 7- Jürgen Habermas, *L'espace public. Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise*, Edition. Payot, Paris, 1962, p. 10.
- 8- آلان بيرو، "التقنية والسلطة والعنف"، كتاب جماعي: *الجمع والعنف*، ترجمة الأب الياس زحلاوي، مراجعة أنطوان مقديسي، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1975، ص: 41.
- 9- المرجع نفسه.
- 10- جميلة حنيفي، مرجع سبق ذكره، ص: 89.

- 11- علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس: مدخل إلى نظرية النقد المعاصرة، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، بدون تاريخ، ص: 98.
- 12- نور الدين علوش، المدرسة الألمانية النقدية من الجيل الأول إلى الجيل الثالث: ثيودور أدورنو، يورغن هابرماس، أكسل هونيث، ص: 23.
- 13- Jürgen Habermas, *L'espace publique. Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise*, p. 162.
- 14- نور الدين علوش، المرجع نفسه، ص: 23.
- 15- جميلة حنيفي، مرجع سبق ذكره، ص: 88.
- 16- كمال بومنيير، أكسيل هونيث فيلسوف الإعتراف، منتدى المعارف، بيروت، ط1، 2015، ص: 35.
- 17- مصدق حسن، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت: النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2005، ص: 122، 123.
- 18- جميلة حنيفي، مرجع سبق ذكره، ص: 95.
- 19- Jürgen Habermas, *Morale et communication*, traduit par Christian Bouchinhomme, Editions. Flammarion collection : Champs essais, France, 1991, p. 196.
- 20- دافيد فونيسكا، "أثر هابرماس في الفقه الدستوري المعاصر"، مجلة القانون وعلم السياسة، تحرير جاك روبيير و إيف غودمييه، ترجمة محمد عرب صاصيلا، مراجعة وسم منصور، (مجلة فرنسية)، 2007، ص: 146، 147.
- 21- بومنيير كمال، "من هابرماس إلى هونيث: من إيتيقا التواصل إلى إيتيقا الإعتراف"، من كتاب: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص: 118، 119.
- 22- كمال بومنيير، أكسيل هونيث فيلسوف الإعتراف، ص: 35.
- 23- Jürgen Habermas, *De l'éthique de la discussion*, traduit par Mark Hunyadi, Editions. Flammarion collection : Champs essais, France, 2013, p. 14.
- 24- مصدق حسن، مرجع سبق ذكره، ص: 119، 120.
- 25- جميلة حنيفي، مرجع سبق ذكره، ص: 86.
- 26- بومنيير كمال، "من هابرماس إلى هونيث: من إيتيقا التواصل إلى إيتيقا الإعتراف"، من كتاب: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، ص: 119.
- 27- المرجع نفسه، ص: 120.
- 28- كمال بومنيير، قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2012، ص: 86.
- 29- نور الدين علوش، الفلسفة المعاصرة: (نماذج مختارة)، دار الرابطة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2013، ص: 31، 32.